الوعي التاريخي في الخطاب العربي المعاصر
قسطنطين زريق أنموذجا.

نورالدين باب العياط

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)، babhistoire@gmail.com

تاريخ الإرسال:2021/.10/20.   تاريخ القبول: 17./2022/03.   تاريخ النشر: 2022/05/01

ملخص: قضية الوعي التاريخي تحتل مكانا خاصا في غي ذات كانت ، سواء الفردية منها كأشخاص ، أو جماعية كأمم وجماعات ، إذ يتحرك فيها شعوريا أحيانا أو لا شعوريا أخرى يظهر من خلاله إلى أي مدى يكون التأصيل فيها ، لأنه من الصعب أن نتحدث عن الحاضر والمستقبل ما لم تكن له جذور تؤسسه في الماضي ، ويقوم الوعي التاريخي على قراءة معرفية لذاك الربط من خلال الكشف عن القانون المتحكم في سلامة البناء الحضاري للأمة أو اهتزازه .

الكلمات المفتاحية(7كلمات): الوعي التاريخي ،الخطاب العربي،المنهج الوضعي،قسطنطين زريق،التعليل التاريخي، التاريخانية، النهضة.

Abstract :

The issue of historical awarenee has a special place in any subject ,whether individual as individuals or collective as nations and groups,as it moves in it with a strong conscious movement sometimes or other unconsciously through which it appears to the extent of rooting in it , it is difficult to talk about the present and the future unless they are it has roots that establish it in the past , and historical awareness is based on a cognitive reading of that link by revealing the original law that controls the integrity of the nation’s civilizatonal constuctio or its vibration

Keywords: Conscious,Arabic Discourse, Positivist Method , Historism, Historical reasoning, Renaissance

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720**/ Legal Deposit N°4343-2014**

المقدمة :

ربما كانت الحاجة إلى الوعي التاريخي ،كون التاريخ يؤدي وظيفة لها من الاهمية ما يجعل الوقوف على مفهوم التاريخ وتحديده بأي شكل من الاشكال، امرا عاديا أمام ما تتركه وظيفة التاريخ وغايته من أثر، يدفعنا أن نحدد ذلك الاضطرار الذي فرض علينا التعامل مع التاريخ حتى في غياب ضبط مفهومه ضبطا منهجيا ، لأن ذلك له مجال آخر من خلال عدة أسباب أهمها اعتبار التاريخ لونا من ألوان التفكير الذي ارتبط بالإنسان من خلال حرية الارادة التي تنعكس هذه الحرية بتعبير كانط " من المعنى الميتافيزيقي الى مظاهر أفعال الانسان وفقا لقوانين طبيعية ,ويعمل التاريخ حينئذ على سرد هذه المظاهر ومحاول البحث في الدور التي تقوم به حرية الارادة الانسانية (بدوي ، 1990م،صفحة 281)

ثم نجد بعد البحث عن الدور هذا كيف ينطق من خلال التاريخ دائما الى صياغة علة حتمية _ جبرية _ ليبرر وجوده على المستوى ذلك من القوة أو الضعف ،كما هو حال وضع العالم العربي الذي استسلم الى حتمية الضعف من خلال فكرة التراجع في المشروع الحضاري العربي .كما أننا نجد لراعي الصراع الفكري الذي يقسم الافراد و الجماعات البشرية الى "ملل ونحل " تعليلا في التاريخ ففكرة الصراع تنطق أساسا من الخلاف ومرد الخلاف لا يتأتى فهمه إلا من جذوره التاريخية كالصراع السني – الشيعي في التاريخ الاسلامي .

إن فكرة بناء القوة في أية امة من الامم يستدعي رجوعا حتميا الى التاريخ ، خاصة عندما يتعلق الأمر بوجود قوى أخرى تريد أن تحدد لأمة من الأمم أسلوب ونمط التفكير من موقع الاستيلاب أو الترغيب، فالرجوع الى التاريخ "...طبيعي في كل ان ومكان ولكن يشتد في عهود النهضات القومية عندما تهب الشعوب لتنشد الوحدة و القوة فتجد أن من أهم مقومات وحدتها تقاليدها الماضية "(قسطنطين ، 1963، صفحة 17)

وقد لا نكون مغالين في القول اذا قلنا أن الرجوع الى التاريخ أو التراث عامة ليس بمحض ارادتنا ازاء هذا المشكل، كما أن وقوعنا في النموذج الغربي كذلك ليس بمحض ارادتنا، فاقتضى الوقوع في الثاني أي في النموذج الغربي الانشداد الى الماضي و التاريخ حفاظا على الهوية و الوعي، " فإذا لم نختر النموذج التراثي بل نختاره لأنه ارث و الانسان لا يختار ارثه كما لا يختار ماضيه و انما يجره معه جرا وأكثر من ذلك يتمسك به و يحتمي داخله عندما يجد نفسه معرضا لأي تهديد خارجي " (الجابري ، 1988 ،صفحة 18-19)

ثم اننا عندما نتحدث عن المستقبل وضرورة اعادة تركيبه، يتطلب خلع القداسة عن بعض المفاهيم في الماضي التي تبقى علة من العلل التي يتجه المستقبل في استخلاصها، ليكون التاريخ في دورة مغلقة يعيد نفسه في قالب من العلل المتكرر "فيجب أن ينتهي التاريخ في نقطة ما كي يتحدد التاريخ من نقطة جديدة "(بن نبي، 1991،صفحة 27) . مما لا شك فيه ان قضية الوعي التاريخي تحتل مكانا خاصا في أي ذات ، كانت سواء الفردية منها كأشخاص أو جماعية كأمم و جماعات ، اذ يتحرك فيها تحركا قويا ،شعوريا أحيانا أولا شعوريا أحيانا أخرى يظهر من خلاله الى أي مدى يكون التأصيل فيها، لأنه من الصعب أن نتحدث عن الحاضر و المستقبل ما لم تكن له جذور تؤسسه في الماضي، ويقوم الوعي التاريخي على قراءة معرفية لذلك الربط من خلال كشف القانون الاصيل المتحكم في سلامة البناء الحضاري للأمة أو اهتزازه، وطالما كان اغفالنا للوعي التاريخي ،كانت هزائمنا تتكرر بصورة واضحة للتاريخ العربي بعد القرن 14م حتى نكسة

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

جوان 1967، وربما لازلنا نتجرع الهزائم تلو الهزائم و امام ضرورة الوقوف على الوعي التاريخي من خلال ما عرضته لنا الاتجاهات الفكرية الغربية منها و العربية.

1- اشكالية الوعي التاريخي :

اذا أقررنا من خلال الوظيفة التاريخية أن التاريخ لونا من ألوان التفكير الذي ارتبط بالإنسان عبر مراحل زمنية متتابعة، لزم علينا أن نتساءل ما هي أهم الخصوصيات التي تؤسس لوعي تاريخي له من الاسس العلمية ما يرتفع بالتاريخ الى المستوى العلمي و المنهجي؟

أ- الانسان في التاريخ : في عملية التاريخ لبعث الماضي، يتجه التفكير فيه الى الانسان مباشرة سواء في صورته الفردية أو الجماعية حيث كان يحرك نسيج الماضي، غير أنه تعترضنا مشكلة تلقين الانسان في التاريخ ومحاولة حصره كمادة أو حادثة تاريخية يجري عليها فعل الزمن كما يجري على أي حادثة أخرى، وهذا ما يلاحظ في دراسة الملوك و الرؤساء حيث يتم التأريخ لهم في اطارهم الوظيفي كرؤساء في فترة زمنية مارسوا فيها سياسة معينة بحيث يلغى نسبيا البحث عن الوجود الانساني في صورته الشاعرية او المفكرة ثم الغوص في عمق الجوهر الذي حرك الرئيس أو الملك مثلا في سياسته تلك ف "...النفاذ الى الجوهر في الانسان شرط أساسي من شروط التفكير الصحيح في التاريخ "(زريق ، 1963،صفحة 114).

ثم ان التفكير التاريخي يصبو أن يجعل الانسان في اطاره الاجتماعي كما هو في طبيعته الفردية، ومحاولة لإدراك أهم المعتقدات و الممارسات الفكرية و العلمية التي اجمعت لتخلق فيه تلك الطبيعة، حتى العزوف عن المجتمع كالتصوف مثلا ، له ما يبرره في الوضع الاجتماعي كما هو شأن متصوفة العصر العباسي، حيث تكاثرت هذه الظاهرة بفعل طبيعة الجو الفكري و السياسي التي أحاطت برجل التصوف .

ويذهب البعض الى ابعد من ذلك الى اعتبار أن بناء حضارة من الحضارات لا تتم إلا في اطار ادراك الحضارات الاخرى في نسق واحد . فالحديث الآن وفي هذا القرن عن "...حوار الحضارات حقيقي ليس بجائز إلا اذا اعتبرنا الانسان الاخر و الثقافة الاخرى جزء من ذواتنا يعمر كياننا ويكشف لنا عما يعوزننا ".(غارودي ، 1986 ، صفحة 186)

ب- الزمن في التاريخ : ينطلق التفكير التاريخي الى محاولة وضع الحادثة التاريخية في حيز الزمن ، غير ان المشكلة أنه يرفض عملية البتر و الانفصال أو التجرد، لأن طبيعة التفكير هو التتابع في الزمن، فالاطراد الزمني هو الذي يعنيه التفكير التاريخي ليراعي فيه التطور أو التغير، و الاكثر من ذلك هو التفاعل الذي ينتج من خلال ذلك الاطراد ، فنلاحظ أن بناء المفاهيم وإرساء الايديولوجيات هي نتيجة تجارب تاريخية تراكمت تراكما زمنيا، فالتاريخ للعقل البشري ليس هو واحد فيما يمثله من خلال العصور الزمنية وان كان واحد كملكة، فعقل رجل ما قبل الكتابة ليس هو عقل رجل الاعلام الالي، و بين هذا العقل وذاك كانت فترة زمنية أتاحت لهذا العقل أن يتطور.

ج-النظرة الشمولية : يجب أن نجعل في الاعتبار خصوصية هامة من خصوصيات التفكير التاريخي، وهي الرؤية للأحداث التاريخية رؤية ترابط واتصال، بالإضافة الى رؤيتنا للإنسان في حيزه الاجتماعي والزمن في اطراده ،كذلك الحادثة التاريخية بذاتها لم تأت مجردة كصدفة، ففي بناء المفاهيم دائما و الايديولوجيات لم تكن عبارة عن أحكام مسبقة سهلة ، وإنما جاءت نتيجة ترابط كلي لأحداث ذات نسق ويعمل التحليل البنيوي على هذا المنوال في جعل الاحداث ذات أصول موحدة اذا فك واحد من هذه الاحداث تداعت الاخرى

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

بالانفصال ، ولا تبقى محافظة على نفس النسق الاول فلا يمكن مثلا ان نرد انهيار حضارة ما وظهور أخرى الى سبب سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي بل هي الكل المتكامل في منظومة تشكلت بفعل تداخل السياسي بالاقتصادي فالاجتماعي .

ان العمق الذي كان يطرحه التفكير التاريخي جعله ينفذ الى جميع مجلات الحياة الانسانية خاصة في القرن التاسع عشر و ربما هذا ما دفع المؤرخ الالماني مينكه " MEINEKE "الى القول بشأن فكرة التاريخانية "HISTORISME " التي تقر بوجود تغير منظور للحوادث التاريخية، ليس البطل هو الذي يتحكم في التاريخ ،بل قوانين تختلف حسب فلسفة كل مؤرخ و رؤيته وغدت التاريخانية بتعبير عبد الله العروي "أعظم ثورة روحية عرفها الفكر الغربي.(العروي ، صفحة 208)

فإذا ما قبلنا بهذه الخصوصيات في التفكير التاريخي، و التي بموجبها نستطيع أن نجيب عن بعض الاشكالات و التساؤلات المصيرية و الافكار التي بقت عالقة في الذهن حبيسة النزعة التاريخية الاستاتيكية، أدركنا حينئذ أن هناك وعيا يتحرك في مجال التفكير التاريخي يقتضي اعادة تشكيله في اطاره العلمي ،وهذا ما قامت وتقوم الطروحات الفلسفية و الفكرية قديمها و حديثها على تشكيله فإذا كان الوعي التاريخي "ادراك الماضي البشري ادراكا عقلانيا، و الادراك العقلاني هو التفكير بأحداث الماضي وبظواهره الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية " علمنا أن هناك نوعين من الوعي:

الوعي التاريخي عن ذاكرة شعبية : وهو الوعي الذي يختزن الاحداث و الاخبار فتتشكل لدينا رصيدا من المعلومات التاريخية التي يعمل المخيال الاجتماعي في المحافظة عليها ،كما يفعل اللاشعور في علم النفس في اختزان المشاعر و الافكار حتى حين استرجاعها لتنتقل من اللاشعور الى الشعور ،فالذاكرة الجماعة لها وعيها بالتاريخ بيد أن في غالب الاحيان تكون مجالا خصبا لإنتاج "الميثولوجيا" (الأسطورة) حيث نكون في حاجة أليها في أوقات الفراغ أو الانقطاع في التاريخ .

الوعي التاريخي العلمي : فهو الوعي الصادر" عن معرفة محدقة بالطرق العقلية و النقلية معا، وهو الوعي المرتبط بعلم التاريخ وصناعته " (كوثراني ، 1986،صفحة 31) أي الطرق و المناهج العلمية التي يتم بها كتابة التاريخ .

وبالتالي من خلال فكرة الوعي التاريخي العلمي نستطيع أن نفهم تلك الوظيفة التي سبق و أن ذكرناها ،وكيف ما ظهرت وظيفة الوعي التاريخي تظهر معه كما أسلفنا تلك الضرورة الملحة لمحاولة استخدامه في استراتيجية خلق نوع من انواع التفكير لدى شعب من الشعوب، و بالتالي فهو يعمل مثلا على تأدية وظيفة سياسية بإقامة نظام معين، ينطلق من خلالها الوعي التاريخي في عملية تبريرية كما هو شأن البروسترويكا لميخائيل غورباتشوف مثلا أين تحركت الاصلاحات و كأنها ردة فعل لسياسات ستالين وغيره التي تمسكت بأسلوب العصا الغليظة فوعينا-بعد قراءتنا-للبسترويكا –هي اعادة بناء على أنقاض التطبيقات العلمية الكلاسيكية للاشتراكية .كما ينطلق الوعي التاريخي في عملية تغيير جدرية على شكل ثورة وتكون نتائجه ملموسة من خلال البرنامج الذي يقدمه أفراد شعب كثورة أكتوبر1917 مثلا .

فالوعي التاريخي "تتشكل مستويات من خلاله لإدراك الماضي ... وهذه المستويات ... تتدخل لتعين في غالب الأحيان وظيفة الوعي في الحاضر "(الكوثراني، صفحة 31) .

<u>2-اشكالية موضوعية المؤرخ :</u>

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

يطرح الباحثون في الدراسات التاريخية سؤالا جوهريا طالما أثار جدلا كبيرا هو: هل بالإمكان الحديث عن الموضوعية في الدراسات التاريخية بالشكل نفسه الذي تكون عليه الموضوعية في العلوم الطبيعية ؟

منذ الاجابة الاولى تظهر مشكلة تعترض الدراسات التاريخية ألا وهي الذاتية و المواقف الشخصية التي تتصل بآراء المؤلف أو المؤرخ الاخلاقية و الجمالية .

و انطلاقا من الجدل الذي حدث بين المفكرين و الفلاسفة حول صعوبة التسليم بموضوعية علمية للدراسة التاريخية -كما هو شأن حقل الرياضيات و العلوم الطبيعية - ظهرت وفقا لهذا الجدل " نظرية النسبية في التاريخ ... وهي احدى القضايا التي تشغل بها فلاسفة التاريخ منذ وقت مبكر ،حيث نفوا فكرة الحيادية المطلقة في ميدان البحث التاريخي ، وعليه اتفقوا أن الأحكام التاريخية انما تفسير خير تفسير اذا فهمت على ضوء بعض القيم الجمالية أو الاخلاقية أو اذا وضعت في اطار مجال ثقافي جديد يحدده الباحث "(الشرقاوي ، صفحة 44)

وأكثر ما يلاحظ في نظرية النسبية التاريخية أنها تحتج انطلاقا من أن المؤرخ يختار عناصر معينة من التاريخ (حادثة في زمن معين في مكان معين شخصية معينة) ثم يقوم بعملية التفسير التاريخي يبرر أصل الحادثة الى دوافع ،ومن هنا اذا كانت مسألة اختيار عينة من التاريخ للتفسير أمر طبيعي باعتبار أنه من الصعب الوقوف على كل الحوادث التاريخية لتفسيرها دفعة واحدة و بالاهتمام نفسه وإلا لما طرحت مشكلة الموضوعية أصلا ،بيد أننا في عملية الاختيار ندخل اصلا في الاعتبارات الذاتية وبعض الميول الشخصية وذلك كله يرتبط فعلا بالاتجاه الاخلاقي و الجمالي وحتى الفكري الذي يكون عليه المؤرخ ،وهنا تطرح مشكلة الموضوعية بحدة لان الذاتية سوف تصاحب الحادثة التاريخية عبر مراحل التفسير لتكشف عن رفضها أو قبولها بمنظور أخلاقي معياري .

ثم تطرح الى جانب ذلك كله مشكلة أخرى في مسألة التفسير التاريخي، فالأسباب المناسبة التي يقدمها المؤرخ عند تفسير التاريخ كعلة أو علل لحدث تاريخي ما ليست كلها واحدة في مستوى اهتمام المؤرخ، فـ" الاهتمام بإبراز سبب معين أو ترجيح علل محدودة على علل أخرى، يتضمن بالضرورة تصورا مسبقا لأهمية عوامل دون أخرى، و هذه الاهمية تتراجع في عقل الباحث بحكم ذاتي خاص يتصل بمجموعة من القيم التي يدين بها الباحث " (الشرقاوي ، صفحة 45) ونلاحظ كيف يفقد ذلك الاهتمام الموضوعية التامة التي تقف في العلوم الطبيعية أسبابها على الفرضيات المسبقة فإذا أظهرت التجربة عكسها ألغيت الفرضية حتى لو كانت باختيار ذاتي لأن الحقيقة شيء و الاحساس شيء آخر .

ثم من جهة أخرى تطرح طبيعة المادة التاريخية نفسها مشكلا للموضوعية فيما يتصل باللغة التي تعبر عنها، فبنفس المستوى الذي تقبل فيه الذاتية لدى المؤرخ في تعامله مع النص، تقبل في الان نفسه قيمة الفعل الانساني من موقع الايجابية و السلبية فيه " ... فمسائل القتل الهزيمة و الخديعة و الاغتيال و الاستشهاد و الاصلاح و ما الى ذلك لا يمكن وصفها بلغة موضوعية مجردة تماما من معان تتصل بالقيم الجمالية و الاخلاقية "(الشرقاوي ، صفحة 46).

اننا مدعوون الى الخوض في التاريخ لعدة أسباب كانت مسألة بناء القوة في مقابل القوى الأخرى التي تريد أن تحدد نمط التفكير يستدعي رجوعا واعيا للتاريخ لا لنستغرق فيه لكن لنعيد تجديد وعينا به

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

كما أن في كل حالة أو لحظة يهتز الوجود الحضاري لأمة من الأمم أو شعب من الشعوب أو ربما حتى فئة اجتماعية، فإن ميزان القيم الذاتية والأخلاقية يتخلخل ، وفي مقابل الاهتزاز هذا ومحاولة بناء القوة ، يبدأ السؤال الجوهري المصيري للمجتمع أو الجماعة يطرح نفسه بإلحاح من نحن ؟ وأين موقعنا ؟ وبهذا الشكل تثار مسألة الهوية وتبرز على الساحة وتبدأ المعالجات الفكرية والتاريخية والفلسفية في الاجابة عن الهوية في إطار اعادة تجديد الوعي بالتاريخ لأجل السؤال عن المصير وبناء المستقبل ليكون بناء القوة .

الأمة العربية وهي تمر بمصير صعب شكلت فيها الهوية ولا تزال عمق المشكل، انطلاقا من الاهتزاز الحضاري لها منذ القرن الرابع عشر الميلادي 1406 حتى سنة 1967 نكسة جوان أين بدت الذات العربية مهتزة بفعل عد اضطرابات، كتلك التي زكتها مستويات الصراع العربي الاسرائيلي والغربي الغربي ، حيث جعلت العربي يتساءل فيها عن مصيره بفعل التأخر التاريخي .

وبقراءة كرونولوجية لتاريخ الاهتزاز الحضاري للأمة العربية بدء من القرن 14 م مرورا بالقرن 18 م الاستعمار، إلى سنة 1916 انتفاضة العرب ضد الأتراك التي لم تأتي بشيء جديد ،لأننا كنا لا نزال نعيش وقع المفاجأة " كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ –أي الاحتلال العثماني- إنهار فجأة كانت أرواحنا ما تزال تعيش أثار القرن 13م ثم العشرين ، كانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التي تخلفنا عنها خمسة قرون " (طيبة ،1986، صفحة 53) إلى سنة 1948م الصراع الفلسطيني الاسرائيلي، إلى 1965 هزيمة مصر إلى 1967م نكسة جوان قلت بقراءة كرونولوجية لتاريخ الأزمة يتضح كيف أصبح تزييف الوعي عندنا بالتاريخ اذ لم يؤسس العرب طوال هذه الفترة وعيا خالصا ، قد نؤاخذ على هذه التهمة الخطيرة ويقال هل كنا طوال هذه الفترة أغبياء ، ولكن نجيب بصورة أكثر عقلانية ، أننا ما قصدنا عندما قلنا انعدام وعينا بالتاريخ أننا أغبياء ، ولكن في كل مرة كان افتقادنا إلى التساؤل عن التاريخ في إطاره الماضي والحاضر والمستقبل ، أي طالما افتقدنا للمشكلة التاريخية "هل الشعب هذا محكوما بالتاريخ أو سيحكم بالتاريخ ، فإذا كان محكوما بالتاريخ فهذا معناه أنه يقبل التاريخ كما هو يخضع لميل التاريخ ، أم الشعب المتيقظ الواعي فهو يتحكم بالتاريخ (زريق،1925،صفحة 125)"

اذن المشكلة عند العرب تبدأ من التاريخ ووعيه، وبهذه الصورة من المشكلة التاريخية كان سؤالنا عن تجديد الوعي التاريخي وإلى أين يتجه مفهوم التجديد هذا حتى يتسنى لنا تحديد مفهوم الهوية .

3-بداية الوعي التاريخي الحديث جدلية الواقع والوعي :

لقد كان أن ورث العرب قرونا من التخلف على كل المستويات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية بل وحتى الفكرية منها ، وللخروج من الأزمة رأى البعض أن الحل لا يكمن إلا باللجوء إلى حلول جاهزة للتقليد ، فكانوا أبعد عن الواقع مما نتصوره ، وكان الشيء نفسه مع من فضلوا النكوص إلى الماضي والاستغراق فيه ، فكانت قراءتهم للتخلف ، في عدم التمسك بالماضي –رمز الدين- غير أن عملية التركيب بين هذين التيارين لا تعتبر حلا للمشكلة التاريخية والحضارية للعرب ، بل الحقيقة تكمن في أن نعي نحن العرب الآن "مصيرنا الجماعي مرتبط بقدرتنا على الارتفاع بوعينا من المستوى اليومي الى المستوى التاريخي والكوني والعالمي " (غليون، 1990، صفحة 162) ، لهذا اتجه مجموعة من المفكريين بعد نكسة جوان 1967 لدراسة المصير العربي وذلك بغية تجديد الوعي التاريخي وعيا قادرا على تدارك تأخرنا الراهن ويتفهم

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

واقعنا المعقد ، وكأني بهم شعروا بأن "أولى المهام التي يتحملها هذا الجيل مهمة إعادة كتابة التاريخ (العروي ،1981،صفحة 21)

4-الخطاب القومي الوضعي ومسألة تجديد الوعي: قسطنطين زريق أنموذجا :

قراءة في المنهج الوضعي : المذهب الوضعي ، مذهب ظهر مع أوغست كونت الذي يرى أن الفكر البشري لا يستطيع ان يكشف عن طبائع الأشياء ولا عن أسبابها وغاياتها وان كان يستطيع ان يدرك ظواهرها ويكشف عن علاقتها و قوانينها وقد مر هذا الفكر خلال تطوره بثلاثة مراحل الحالة اللاهوتية والحالة الميتافيزقية والحالة الوضعية وهذه الحالة النهائية (صليبا، 1982، صفحة 578) والوضعية صفة الفكر التجريبي تطلق على ما يتصل بالواقع وعل الأحكام الإيجابية وعلى ما يحمل على الفعل لا على ما يصد عنه ، كما يقترن المذهب الوضعي بالنزعة الشكلية للفلسفة الماركسية في دراسة التاريخ وذلك في حدود منتصف القرن 19 م وهي الفلسفة التي تعمل في اطار العلوم الطبيعية وقد دفعتها الدراسات الداروينية مبدأ التطور إلى الأمام ، ويعتمد عدة طرق علمية منها طريقة النقد اللغوي والتي تنحل الى نقد داخلي ونقد باطني للمؤرخ

قراءة في الخطاب الوضعي : يحاول قسطنطين زريق من خلال دراساته أن يتجه إلى معالجة الوعي الذي يشكل محور كتابه الثاني "أي غد ؟" الذي كان قد مهد له في أول كتابه " الوعي القومي" وفي اتجاهه هذا كان السؤال عن الوعي وعن الغد هو طبيعة حتمية كنتيجة لأزمة الواقع العربي ، خصوصا بعد فشل القوات العربية أمام القوة الصهيونية ، فالسؤال عن المستقبل ضروري "إنه السؤال الذي يجب أن نعي مضمونه إذا أردنا لأنفسنا السلامة والرقي" (زريق،1957،صفحة 54) ، فالأزمة هي أساس الوعي عند زريق ، فواجب المؤرخ القومي أن يتمثلها دوما لحظة من لحظات وعيه لأن الخروج من ضيقها عندئذ يصبح الوعي بهذه الأزمة هو وعي بالتاريخ ، ولا يفهم التاريخ إلا من خلال انسحابه على الماضي والحاضر والمستقبل ويكون دور المؤرخ أن يغير اتجاه وعينا واهتماماتنا الحاضرة بما قد تمثله من حلول للأزمة التي يحياها أبناء الأمة " فهو يصرف اهتمام أبناء مجتمعه عن العرض الزائل إلى الجوهر الباطن ، ويثبت في نفوسهم الحقيقة الأولية التي تكشف عنها العواصف والأزمات " (نفس المصدر ص31)

وما يضفي على خطاب زريق صفة الوضعية ، أنه بضع الحاضر ليس في مقابل الماضي ولكن يجعله كوسيلة ضرورية في تكوين وعينا بالماضي والمستقبل لأن الماضي لأجل استعابه بكل ثراه وغناه يتطلب حاضر ووعي بخصوصياته .

أ-التاريخ في الخطاب الوضعي :

يقترح زريق لنفسه استعمالين للفظة (تاريخ) لينطلق في تحديد مجال دراسته ، فلفظة "التأريخ" بالهمزة تطلق على دراسة الماضي ، ولفظة (تايريخ) بالألأف اللينة على الماضي نفسه ليعطي مجال اهتمامه للتأريخ من خلال أن السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه" (زريق ، 1963، ص 14) "فالإدراك " و" الماضي البشري " و" الاحياء" هي ألفاظ يبذل زريق اهتمام بالغا في تقفي مدلولاتها لأنها تشكل مفتاح دراسته .

فغاية الادراك تبدو بحسب زريق في ادراك الماضي البشري كما كان ، لا كما يتوهم أنه كائن ، وكذلك هو ليس "تصوير الماضي كما يجب أن يكون أو كما نريده أن يكون "(زريق،1963،صفحة 57) أي قراءة الماضي في صورته الحقيقية المدركة دون اللجوء إلى الجانب الفلسفي التأملي، أما الماضي البشري "هو قراءة التاريخ الانسانيى منذ اكتمل تكوينه الطبيعي وانقسم إلى أجناسه وأسره المعرفية ، أي تتبع مراحل

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

وعي الانسان ، أما الإحياء فهو يكمن في نوعية القراءة التي نضيفها على تاريخنا وخصوصية المعرفة التاريخية التي نتناول بها تاريخنا فهل ايديولوجية أن معرفية وبهذه المفاهيم سوف تأخذنا الضرورة بعدم الاكتفاء بالماضي بل نتعدى الحاضر إلى المستقبل

ب-من الخطابات الكلاسيكية إلى الخطاب الوضعي :

من النتائج الغير منطقية التي كان الخطاب التاريخي العربي محورها بحسب زريق هي النظرة اللاواعية للماضي مما دفعت إلى انقسام الخطاب التاريخي إلى أربعة اتجاهات أو تيارات : التيار التقليدي ، التيار الماركسي ، التيار القومي ، والتيار الوضعي ، يحاول زريق مناقشة هذه التيارات ويبدأ بالتقليدي منها فهو " التيار الذي يحاول أصحابه بالرجوع إلى الماضي ، وقراءة مأساة حاضرهم ومستقبلهم فيه ، فهو ينبع من مصادر القرون الوسطى " (زريق، 1963،صفحة 57) ، فنظرته للماضي – التاريخ- نظرته إلى الأمة الاسلامية التي تمثل رمز التقدم في الماضي ورمز الانبعاث في المستقبل ، و" تعليل نشوء الأحداث وتطورها هو تعليل إلهي .. من حيث أسلوب المعرفة التاريخية .. التصديق والركون إلى أخبار السلف .." وانطلاقا من هذا الحكم ينطلق زريق كتقييم لهذا التيار فيعتبره بعيدا كل البعد عن المناهج التاريخية الحديثة ، والتي أصبحت متداولة في الخطاب التاريخي العام ، فالتيار التقليدي "لا يتمكن من آليات البحث – التعليل والحكم – أو أساليب التحقق التاريخي التي استنبطت في القرون الثلاثة الأخيرة بل لا نغالي إذا قلنا أنها ضعيفة الصفة بأساليب النقد التي استنبطها العلماء المسلمون في عصور نهضتهم وانتاجهم " (الدوري ،صفحة 9) كما أن هذه النظرة لا تقتصر على التيار التقليدي عند المسلمين بل تتعداها إلى التيار التقليدي المسيحي كنظرية العناية الإلهية عند القديس أوغسطين

ومن ثم يرى زريق أنه لا بد من إعادة النظر في الخطاب التقليدي من موقع تفهم " سبب النشأة التاريخية عند العرب ، لنرى دوافع كتابة التاريخ عند العرب واتجاهات المؤرخين وآرائهم التاريخية وأسلوبهم في تمحيص الروايات وفي الكتابة ونظرتهم إلى أهمية التاريخ ودوره في الحياة الثقافية والحياة العامة "(زريق ،1963 ،صفحة 36)

أما التيار القومي الذي يضع مفاهيم الثقافة ، اللغة ، والتقاليد هي البناء التأسيسي لوعي التاريخ فهو يتصف بكونه يقبل "على الماضي اقبالا يكاد في بعض الأحيان يبلغ حد الانغماس التام والخضوع الكلي له "(زريق ، 1963،صفحة 37) حيث ثم نوع من الاختزال للتاريخ إذ أصبح يقتصر على الأمة العربية حتى وان نادى بالماضي واعتبره أساسا في اتجاهه غير أنه في جل الأحيان يهمل "الروابط التي تشده إلى تواريخ الشعوب والأمم الأخرى ، وتسهى عن وحدة التاريخ البشري المتشابكة "(زريق ، 1963،صفحة 37) أما التيار الماركسي فله خصوصياته وأساليبه تبعا للمعطيات العلمية ورؤيتها الواقعية ، بل له من التأثير الفعلي في مجتمعنا ما يجعله يطغى بصورة أو بأخرى إذا علمنا أن مجتمعنا العربي يعاني تخلفا على كل الأصعدة ، سياسية كانت أو اقتصادية ، فلا غرابة أن يكون التيار الماركسي إجابة طبيعية لما تعانيه الذات العربية ، وبالخصوص أننا نخوض ثورة على الاستعمار الغربي الذي كان ندا للماركسية ولا يزال ، كما أنه التيار الذي يبدو أنه يعلل الأشياء والأحداث " تعليلا مبسطا حتميا ويبشر بالثورية سبيلا للتقدم وينظر إلى المستقبل نظرة تفاؤلية "(زريق ، 1963،صفحة 38) وهذا ما كان مبتغى المجتمع العربي خصوصا بعد تراكمات التخلف إثر نكسة جوان 1967م من جهة والصراع العربي الاسرائيلي من جهة أخرى .

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

في مقابل هذه التيارات الثلاثة هناك التيار الوضعي الذي يبدي فيه زريق اعجابا به فهذا التيار قد " تكون تدريجيا بفضل تنبهنا للمدنية الحديثة واقتباس عقليتها بالتوجه إلى الماضي دون فكرة مسبقة لأي فلسفة مفروضة ويحاول استعادة الماضي لأجل ربط الحقائق المفردة ، لكي يستخرج منها صورة الماضي ""(زريق ، 1963،صفحة 42) ، وهو التيار الذي بدأ ينتشر في المدارس التاريخية الغربية من خلال الاستفادة من بعض العلوم الأخرى التي نرى حسب اعتقادنا أنها استطاعت أن تعطي دفعا قويا لهذا التيار كعلم الأجناس القديمة ، وعلم اللغة (فيلولوجيا) وعلم الآثار ، تاريخ الأديان المقارن

رغم كل هذا تبقى التيارات الأربعة كلها تتحرك في إطار خلق رؤية غير واعية بتاريخنا لأنه "غاية التاريخ هي ادراك الماضي كما كان لا كما نتوهم أنه كان ، وكذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب أن يكون أو كما نريده أن يكون وعليه فإن الحديث عن إعادة تشكيل وعي بالتاريخ يتم بحسب زريق من خلال "عودة أصيلة متبصرة يهديها العقل و يوضحا فهم صادق لعلاقة ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا" "(زريق ، 1963،صفحة 17) ولا نعي هذه الحقيقة الديناmية حقا إلا من خلال تبني منطق الواقع لإعادة التجديد ، ومنطق الواقع عموما يقتضي وجود صراع لماضينا القومي .. وللتاريخ الانساني عموما ، مجابهة ترتفع إلى مستوى هذين الواقعين " "(زريق ، 1963،صفحة 19) وتبقى مسألة الحكم في التاريخ متوقفة في نهاية الأمر على رؤيتنا نحن وعلى توظيفنا السليم للماضي فمسألة " الأثر إيجابيا أو سلبيا أو نصيبه من هذه الصفة أو تلك رهين بجدارتنا واستحقاقنا وصحة موقفنا وتتم على وجهين : إما أننا ندع التاريخ خلفنا يشدنا إلى الوراء وبالتالي يتجمد التوظيف أو نضعه أمامنا حيث تتم تحويله أي تجاوز الأزمة من خلاله ، ويكون ذلك محفزا لنا ، وتكون بذلك عملية الحكم في التاريخ والتي تنتهي في آخر الأمر" إلى استخراج التراث الإيجابي الذي يتضمنه والتي تميز هذا التراث عن العناصر السلبية الماضية التي أضعفت الابداع وعطلته وأعاقت نمو التراث وامتداد نطاقه وأثره " "(زريق ، 1963،صفحة 227)

ج-آليات الخطاب الوضعي عند قسطنطين زريق :

-آلية التعليل التاريخي : وهو " محاولة اكتشاف علة الاحداث الماضية و عللها (من خلال تصور التاريخ) حدث ... كما حدث و اتخذ الشكل الذي يتراءى لنا به " أو بصيغة بسيطة كبيرة "لماذا حدث التاريخ" "(زريق ، 1963،صفحة 133) وبهذا الشكل سوف يخرجنا التعليل عن ذلك التصور الذي يرد الاحداث التاريخية الى تصور ميتافيزيقي اسطوري احيانا تلغى فيها ارادة الانسان ليكون الانسان هو الفاعل و ليس موضوع الفعل فحسب كما سبق و ان اشرنا ذلك في أثناء حديثنا على اشكالية الوعي التاريخي فالانسان "لا يتأثر بالواقع فحسب بل يؤثر فيه و لا يكتفي بأن يكون نتيجة و محصولا بل يطمح الى أن يغدو سببا فاعلا ... هو ابن التاريخ و أبو التاريخ في وقت واحد "(زريق ، 1963،صفحة 22)

وعليه فالدراسة أو التفكير في الانسان أن يكون لنا وعيا به ككائن حي تاريخي فبالنظرة للماضي و للإنسان يكون التعليل التاريخي أحد اسس الوعي التاريخي قد بلغ أهدافه الرئيسية من خلال كون التعليل التاريخي "مقدمة للتاريخ و خاتمة له مقدمة لأنه يكشف عن الافتراضات التي ينطوي عليها نظرنا الى الانسان و الى الماضي و خاتمه لأنه يظهر خلاصة مفهومنا للماضي المستمرة من الحوادث "(زريق ، 1963،صفحة 145)

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

-آلية الابداع التاريخي كما أننا نعتقد لحد ما وصلنا اليه أن مسألة تجديد الوعي التاريخي قد مرت بوعي الماضي - كما هو ودراسته في اطار التعليل فأن زريق يتعدى ذلك الى المستقبل , و يعتبره أحد الاسس الضرورية للعمل التاريخي المبدع " باعتبار "ان المبدعين في التاريخ كانوا أبدا متطلعين الى الامام كانوا روادا ... مغامرين "(زريق ، 1963،صفحة 188), ومسألة التطلع الى الامام لا تعني عند زريق القفز الى المستقبل او الهروب اليه ليكون التفكير في المستقبل محتوى كل تطلعاتنا و تفكيرنا بل يرتبط هذا الابداع من خلال " صلته بالماضي (يتم فيها) ادراك وحكم و استلهام لا صلة نكوص و انبهار و هروب "(زريق ، 1963،صفحة 189) ؛ وسبب ذلك الابداع هو الازمة التي نحياها أزمة الحاضر التي تفرض علينا دراسة مقارنة التي نجريها عن دراسة عميقة أو حتى عن رؤية سطحية بين انجازات الامس و الماضي و بين ما نريده كابداع في المستقبل -فالتاريخ يخلق اذن – وهذا ما يميز دراسة زريق بالفعل – تداخل الأزمنة من حاضر و مستقبل وماضي و طبيعة كل زمن يقتضي في عليته حضور الاخر ف "الاهتمام بالماضي و الحاضر (مثلا) ناشىء عن الرغبة في معرفة ما ينطوي عليه المستقبل وما ستأتي به الأيام "(زريق ، 1985 صفحة 23)

وهذا حقيقة رؤية ضرورية طالما غفلنا في مراعاتها خصوصا و نحن نعيش انشطار زمني رهيب.

5-في انتظار وعي تاريخي جديد :

كيف يمكننا الحديث عن وعي تاريخي جديد في مقابل كل الاتجاهات والطروحات الفكرية العربية الحديثة التي قدمت رؤاها وتطلعاتها الأيديولوجية بغية تجديد وعي تاريخي من خلالها ، بل كيف يمكننا نحن العرب المعنيين أولا في مقابل أزمتنا الخانقة في التأخر التاريخي والحضاري أن نجدد وعينا بتاريخنا ، فهل نخلع كل ما يربطنا بماضينا القريب والبعيد بايجابياته وسلبياته ونستقبل عهدا جديدا انطلاقا من الآخر (الغرب) الذي يمثل رمز التقدم والوعي لنأخذ عنه (العقلنة) و(الدمقرطة)و (الحرية),(الدولة) لنكون هنا فقط غير ايديولوجيين و غير تقليديين كما يحاول الطرح القومي الحديث ايها منا عندما يتبنى خطابه التأسيسي انطلاقا من نقد الخطاب السلفي (الغارق في الماضي) – حسب زعمه .

ثم اننا نسأل هل ما وصل اليه الاتجاه الغربي الى وعيه بالتاريخ، بالمستوى الذي يجعله يبدع آليات تفكير أخرجته من ضيق العناية الاهلية للقديس أوغسطين الى حرية الارادة لكانط، جاء قفزا على الاصول التاريخية للفكر الديني؟ هل جاء في فراغ يجعلنا بمستوانا الساذج نؤمن به نحن العرب كما تعودنا في كل مرة أن نؤمن بأي شيء يكون الغرب مصدره ،ونحلم بعصر "أنوار" عربي على غرار عصر الانوار الاوروبي كما يحلم العروي به، ويجعله من أولى اهتماماته متناسيا عن عمد أن عصر الانوار هو أيضا الاستعمار الاوروبي هو الهيمنة الامبريالية الحديثة التي ولدت مع ضعفنا الهوة في تأخرنا الحاضري، و لنسأل " ألا يوجد غير عصر الانوار" شكلت فيه الحضارة الانسانية بشقيها الروحي و العقلي أوج قوتها ،خلقت لنا محي الدين بن عربي و شهاب الدين السهروردي و خلقت لنا المعتزلة و ابن رشد و ابن سينا و الشيرازي ،ثم نسأل العروي متى وعى الغرب عموما أن "هناك شيء من الغرب في الشرق وهناك شيء من الشرق في الغرب " إلا نحن العرب و مثقفينا من موقع ضعفنا و تأخرنا و تنصلنا عن مشروعنا الحضاري الذي توقف مع ابن خلدون في القرن 14 م ،إلا نحن العرب قلنا ، مازلنا في "وعينا الزائف" نؤمن بهذا التسامح من موقع ضعفنا لا من موقع تواصل ثقافي أو حضاري، لأن أصل التواصل لا يعني التجرد عن الاصل و التراث و لكن التواصل يعني مد الماضي في الحاضر و المستقبل لأنه الماضي وحده الذي يحفظ لنا هويتنا الحضارية ،و الهوية تعني "أنا هو أنا" بمنطق أرسطو و أنا هو "أن ما في الشرق شرق ,وما في

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

الغرب غرب " كما عبر عن ذلك المستشرقون أنفسهم لا كما يزعم العروي ،و اننا هنا لسنا متعصبين لأبسط سبب هو أنه اذا كانت المسألة تتعلق بهويتنا التاريخية فإننا نؤمن بالتعصب لأننا نعتقد مبدئيا أن التعصب حالة ضعف و هروب من مواجهة الفكر المضاد اذا كان يرتبط بمسائل الحوار و البحث عن نقاط التلاقي، هنا فقط يكون التعصب ضعفا و لكن اذا ارتبط بمسألة الذات و الدفاع عن الاصول التاريخية مقابل من يريد الغاءها وانتزاعها فالتعصب يصبح وعيا، و التاريخ وحده كفيل أن يثبت كم نحن في حاجة الى تعصب من هذا القبيل ،تعصب ينعش فينا وعينا التاريخي و يجعلنا أبدا نعيش القلق في انتظار وعي تاريخي أصيل .

قائمة المصادر والمراجع :

-عبد الرحمن البدوي النقد التاريخي ، (بدون سنة) دار النهضة العربية القاهرة

- قسطنطين زريق ، 1963 ، نحن والتاريخ ، دار الملايين بيروت ط1

- قسطنطين زريق ،1985، نحن والمستقبل ، دار الملايين ، بيروت ، ط2

- محمد عابد الجابري ، 1988 ، الخطاب العربي ، دار الطليعة بيروت ، ط3

- مالك بن نبي ، 1991، دور المسلم ورسالته ، دار الفكر ،بيروت ط1

- روجيه غارودي ،1986 ، حوار الحضارات ، منشورات عويدات ، بيروت ط3

- عبد الله العروي ، العرب والفكر التاريخي ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ط2

- وجيه كوثراني ، خريف 1986، الوعي التاريخي في النظرة القرآنية ودوره في عملية التغيير ، مجلة الحوار ، العدد3

_ عفت الشرقاوي ، أدب التاريخ عند العرب ، فكرة التاريخ نشأتها وتطورها دار العودة ، بيروت ، لبنان

-عبد العزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب ،بيروت لبنان ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط3

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014